المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

شوبنهور: الفلسفة والدين و"الحاجة الميتافيزيقية"

كيبيش عبد الرحمان
أستاذ محاضر (أ)، قسم الفلسفة - جامعة الجزائر2
abderrahmane.kaibiche@univ.alger2.dz

تاريخ الإرسال: 2021/05/30 تاريخ القبول:2021/06/25

ملخص:
وجدت الفلسفة ووجد الدين للتعبير عن نقص طبيعي يعانيه الإنسان، وهذا النقص يعبر عنه شوبنهور "بالحاجة الميتافيزيقية" إلى الحقيقة، والحقيقة إما أن يدركها الفلاسفة بالتأمل النظري المتعمق في الوجود، أو يجدها الناس العاديون في الدين وأساسها الإيمان والتسليم. ولأن اليهودية والمسيحية لا يصلحان كميتافيزيقا دينية نظرا لما يعتريهما من تحريف وأخطاء، فإن الديانة الهندية في صورة البراهمانية والبوذية، تعتبر الأنسب لإشباع الحاجة الميتافيزيقية نظرا لما تتميز به من قدرة على إدراك حقيقة الوجود كما هي لا كما تظهر لنا مغلفة بحجاب الوهم.
الكلمات المفتاحية: الفلسفة، الدين، الحاجة الميتافيزيقية، الميتافيزيقا الدينية، البراهمانية.

Abstract:
Philosophy and religion exist to express a natural deficiency from which man suffers, and this deficiency is expressed by Schopenhauer as a "metaphysical need" for truth. Truth is either perceived by philosophers through an abstract contemplation of existence, or found by ordinary people in religion based on faith and submission. Because Judaism and Christianity are not suitable as religious metaphysics due to their distortions and errors, Indian religion, in the form of Brahmanism and Buddhism, is considered the most suitable for satisfying the metaphysical need due to its capacity to perceive the reality of existence as it is, and not as it appears to us shielded by illusion.
Keywords: Philosophy, Religion, Metaphysical need, Religious metaphysics, Brahmanism.

ـمقدمة:
تناول شوبنهور(1788-1860) مسألة الدين في ثلاث أعمال أساسية هي: "العالم كإرادة وتمثل" le monde comme volonté et comme représentation وكتابه "حول الدين" Sur la religion وكذا كتابه "ضد الفلسفة الجامعية" Contre la philosophie universitaire، ومن خلالها يظهر بوضوح موقفه من الدين، موقف تطور وتغير أكثر من مرة، فقد كان في البداية يبدي رفضه وازدراءه للدين بشكل عام والدين المسيحي بشكل خاص لاعتقاده بأنه ليس سوى بديل خرافي يلجأ إليه البشر عندما يعجزون عن إدراك الحقيقة، ثم

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

يتراجع فيعلن بأن وجود الدين حتمي في حياة الإنسان ومع ذلك فهو ليس سوى ألم يرافق وجوده، ومع مرور الزمن بدأ يدرك القيمة الميتافيزيقية الحقيقية التي تعبر عنها الديانة الهندية، وباستثماره للمعاني الجوهرية الواردة في تلك الميتافيزيقا، استطاع أن يبلور موقفه النهائي من الدين وهو أنه لا ضير في أن يتخذ الإنسان ميتافيزيقا دينية تكون وسطا في مبادئها وبديلا عن المسيحية واليهودية، ولكنه يشترط فيه أن يخلو من التحريفات التي مست المسيحية وأن لا يتضمن ذات الأخطاء التي يحملها الدين اليهودي.

ولأن الإنسان بطبيعته يعاني من ظمأ ميتافيزيقي لا يمكن إروائه إلا ببلوغ الحقيقة، ولأن الفلسفة هي طريق الفلاسفة لإرواء ذلك الظمأ، فإنه من الضروري أن يكون لكل من لا يقدر على سلوك طريق الفلسفة ميتافيزيقا دينية تلبي حاجته الميتافيزيقية، وقد وجد شوبنهور في الديانة الهندية أفضل من يلبي تلك الحاجة باعتبارها أقدر من غيرها على إدراك المعنى الحقيقي للوجود والحياة.

وعليه يمكن طرح الإشكال الآتي: فيم تكمن حاجة الإنسان إلى الميتافيزيقا؟ وإذا كانت الفلسفة ميتافيزيقا قائمة بذاتها، فما هي الميتافيزيقا الدينية الأنسب لإشباع الحاجة الميتافيزيقية لغير الفلاسفة؟

1-حاجة الإنسان إلى الميتافيزيقا:

إذا كانت الميتافيزيقا من المباحث الجوهرية للفلسفة، فليس ذلك لأن الفلاسفة أقدر من غيرهم على التأمل المجرد في طبيعة الأشياء، بل لأن الميتافيزيقا في حد ذاتها حاجة طبيعية يشعر بها الإنسان العادي مثلما يشعر بها الفلاسفة، غير أن حاجة الفلاسفة إليها لا تضاهيها حاجة الإنسان العادي، وقد ذهب شوبنهور إلى أن الميتافيزيقا نوعين:

- ميتافيزيقا فلسفية خاصة بالفلاسفة أكثر من غيرهم.
- وميتافيزيقا عامة تتمثل في الدين، وهذه شواهدها كثيرة مثلما تعبر عنها الرموز الدينية سواء كانت إلهية كشفية في صورة الأديان السماوية، أو طبيعية في صورة الديانة المجوسية أو البوذية، إذ كلها يعبر عن الحاجة الميتافيزيقية لدى الإنسان[1].

فإذا كان أرسطو قد ذهب في كتاب "ما بعد الطبيعة" إلى أن كل الناس يرغبون بطبيعتهم في المعرفة، فإن محفز الرغبة عندهم يتمثل في "الدهشة" L'étonnement، إنها تمثل الدافع الأول للتأمل النظري في الوجود وبالتالي لنشأة الميتافيزيقا أو ما يطلق عليها باسم الفلسفة الأولى[2]، وهذا ما يجعل منها وسيلة لتلبية الرغبة الجامحة في المعرفة لدى الفلاسفة دون غيرهم، في حين يذهب شوبنهور إلى أن الميتافيزيقا غاية في حد ذاتها قبل أن تكون مجرد وسيلة لإشباع الفضول أو الرغبة في المعرفة، وذلك لأن كل الناس مدفوعون إلى البحث عن الحقيقة تلبية لتلك الحاجة الميتافيزيقية الملحة، ولعل أكثر ما يثير تساؤل الإنسان ودهشته في الحياة هو مصيره بعد الموت، مما يعني بأن الخوف والقلق من المجهول كلها انفعالات تعكس

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

حاجة الإنسان الميتافيزيقية[3]. فلا يمكن القول إذن بأن قلق الإنسان وخوفه على مصيره إزاء الموت باعتباره الحدث الأعظم هو من باب مجرد الفضول أو الترف الفكري.

يقول شوبنهور: «مع أول تأمل تنشأ الدهشة، والتي ستكون لاحقا الأب للميتافيزيقا»[4]، أي أن الدهشة هي الأصل الأول لكل ميتافيزيقا، ولأن أكثر ما يحير الإنسان ويقلقه في الوجود هو ظاهرة الموت وصوره المتعددة، فقد كان لغز الحياة والموت والخلود مسائل جوهرية لكل تأمل فلسفي تماما مثلما أنها جوهرية في كل الأديان، فالإنسان في كل زمان ومكان لا يمل في بحثه عن أجوبة كافية شافية مطمئنة إزاء الموت، وقد كان الأنبياء كما الفلاسفة أكثر فئات البشر حرصا على معرفة ماهية الموت ومصير الروح بعد مفارقته للجسد، بتلك الأسئلة وبتلك الانفعالات استحق الإنسان أن يوصف بأنه "حيوان ميتافيزيقي"[5] أكثر من كونه حيوانا ناطقا كما سبق وصفه من قبل أرسطو.

وبما أن الحاجة الميتافيزيقية خاصية إنسانية عامة، فقد كان كل ما لا يقتنع به الإنسان انطلاقا من التفسير السببي للأشياء يحيله إلى الميتافيزيقا، غير أن ما تقدمه له الميتافيزيقا من حقائق يتفاوت في درجة ميتافيزيقيته تبعا لتفاوت الملكة الميتافيزيقية لدى كل إنسان، أي أن الحاجة الميتافيزيقية "Besoin métaphysique" تنشأ أيضا من عدم تناسب ملكته الميتافيزيقية مع ما يطمح إليه من حقائق تتعلق بالحياة والوجود، وهذا ما يعني بأن الملكة الميتافيزيقية بدورها نوعان:

- ملكة ميتافيزيقية أعلى وأرقى خاصة بمن لهم القدرة على التفكير المجرد.
- ملكة ميتافزيقية دنيا يشترك فيها كل الناس وعلى وجه الخصوص أولئك الذين تقتصر قدرتهم على الإيمان[6].

ينشأ عن الملكة الأولى الفكر الفلسفي أي الميتافيزيقا كفلسفة نظرية، وهذه الأخيرة أهم من الفلسفة العملية لأنها ميتافيزيقية في جوهرها، وحتى تبقى الفلسفة ميتافيزيقية في جوهرها ينبغي ألا تخرج عن طابعها النظري مهما كان موضوع دراستها، في حين ينشأ عن الملكة الثانية الاعتقاد الديني، إلا أن كلاهما يعكس عدم اقتناع الإنسان بما يمكن أن تقدمه له التفسيرات المحتجزة في حدود مبدأ السببية[7].

يروي الفلاسفة ظمأهم الميتافيزيقي من خلال التفلسف فيما وراء الموجودات الظاهرة، وبالمقابل يعجز الإنسان العادي عن إشباع حاجته الميتافيزيقية إلا بما يمكن أن يقدمه له الدين، فقد كان مصير الإنسان بعد الموت هو الهدف المشترك بين المذاهب الدينية والمذاهب الفلسفية، والأديان على الرغم من اهتمامها الكبير بمسألة الألوهية إلا أن الناس ما كان لهم أن يقتنعوا بعقائدها لو لم تكن مرتبطة أساسا بمسألتي الموت والخلود، أي أن الأديان تمنح الإنسان ما يطمح إلى معرفته عن مصيره بعد الموت، وبذلك عدت الميتافيزيقا جوهر كل دين، وهذا في حد ذاته يفسر لماذا لم تكن المذاهب المادية أو الشكية ذات تأثير كبير على عقول الكثير من الناس،

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وذلك لأنها تنكر أي حياة ممكنة بعد الموت وبالتالي تنفي نفيا كليا فكرة الخلود، وهذا بدوره يفسر عدم اشتغالها بالمسائل الميتافيزيقية[8].

إذا كان الكثير من الفلاسفة وعلى رأسهم "ديفيد هيوم" (1711-1776) يفسرون نشأة الدين نتيجة لعوامل نفسية وجدانية بالدرجة الأولى ساهمت في نشأة الدين ونزوع الإنسان الطبيعي إلى الإيمان بالآلهة والاعتقاد فيها على غرار القلق والخوف من المجهول[9]، فإن الفلسفة تنشأ نتيجة لحاجة فكرية ملحة تدفع الفيلسوف إلى اقتحام المجهول متسلحا في ذلك بالشك والجرأة النقدية، خوفه وقلقه الوحيد من عدم بلوغه الحقيقة[10]. فالفلسفة في نظر شوبنهور ميتافيزيقا حقيقية باعتبارها الأقرب إلى الحقيقة وكذا باعتبارها أكثر إلحاحا وإصرارا على بلوغها، وما يفسر ذلك هو أن الفيلسوف أكثر تحفظا في تقبل الأشياء والتسليم بالحقائق على خلاف الإنسان العادي الذي يستسلم لانفعالاته الوجدانية والتي سرعان ما تصل به إلى الاقتناع السطحي دون تعمق أو تمحيص للحقائق، وقد كان هذا هو السبب في ظهور الدين ونشأته، وفي هذه النقطة يعتقد شوبنهور مثلما يعتقد "هيوم" تماما من أن الدين مشكوك في حقيقته تبعا لطبيعة نشأته، وفي هذا يكمن الفرق الجوهري بين الفلسفة والدين، ففي حين يرتكز الدين على التسليم والاقتناع بالعقائد دون التشكيك فيها، تتبنى الفلسفة من الشك منهجها الوحيد من أجل بلوغ درجة الاقتناع وبالتالي بلوغ الحقيقة، وهذا ما يعني بأن الحقيقة مطلب جوهري وأزلي لدى الإنسان إن لم يجدها في الفلسفة وجدها في الدين، وبذلك تتحول الميتافيزيقا الدينية إلى مجرد بديل خرافي للحقيقة[11].

تكمن القيمة الحقيقية للفلسفة باعتبارها حاجة ميتافيزيقية عليا في أنها تبحث في المسائل الجوهرية المتعلقة بالوجود وعن الأسرار الكامنة خلف الموجودات، متجاوزة في الوقت نفسه حدود الظواهر وما يمكن جنيه من وراء ذلك من أجوبة سطحية أو حقائق عرضية. يقول شوبنهور في هذا المعنى: «الفلسفة الحقيقية هي التي تقودنا إلى معرفة جوهر العالم وترفعنا فوق الظواهر»[12]. فلا قيمة للفلسفة إذن ولا شرف لها إلا بالبحث في حدود ما هو كوني وفيما يقود إلى جواهر الأشياء ومبادئها الأولى، وهذا لا يتحقق إلا ببقائها كوسمولوجية الطابع والابتعاد قدر الإمكان عن حدود ما هو ثيولوجي لاهوتي، وهذا ما يدعو إليه في قوله: «ينبغي على الفلسفة أن تبقى كوسمولوجية لا أن تتحول إلى لاهوتية»[13]. إن الفرق بين ما هو كوسمولوجي وما هو لاهوتي كالفرق بين الضيق والواسع، ففي حين يقتصر دور الثيولوجيا على تقديم الأجوبة الجاهزة والنهائية التي يقتنع بها الإنسان العادي ويرتضيها لنفسه، فإن الفيلسوف بطبيعته لا يرضى بهذا النوع من الأجوبة، ولذلك كانت القيمة الحقيقية للفلسفة هي أنها تتخذ البحث في الكون اختصاصها الأول من أجل التعبير وبشكل كلي عن كل ما هو جوهري في هذا الوجود، بل إن ذلك فقط هو ما تستطيع الفلسفة أن تعبر عنه بصدق ونزاهة حتى وإن كانت الحقائق التي تقدمها لنا عابرة أو صالحة لحين من الزمن فقط[14].

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

لا يمكن للميتافيزيقا الفلسفية أن تقدم لنا أجوبة نهائية قطعية حول موضوعاتها لأن ذلك يتعارض مع طبيعتها، وهذا بالضبط ما يختلف فيه شوبنهور مع أستاذه "كانط"(1724-1804) وبعض تلامذته على غرار "هيغل"، فلقد انتهى الأمر بكانط إلى القول بأن الميتافيزيقا في صورتها التقليدية لم تعد ممكنة، حجته في ذلك أنها باتت عاجزة عن تقديم الإجابات الحقيقية حول موضوعاتها وبالتالي لا شيء يمكن معرفته من خلالها ومن ثم فقد بات من الضروري إحداث ثورة فيها على غرار مع حصل في الرياضيات والطبيعة[15]. في حين يذهب "هيغل" (1770-1831) إلى أن الميتافيزيقا لها القدرة المطلقة على أن تجيبنا عن كل أسئلتنا وبالتالي إمكانية أن نعرف كل شيء من خلالها. لقد لاحظ شوبنهور بأن كانط وهيغل يقفان على طرفي نقيض فيما يخص قدرة الميتافيزيقا، وبناء على ذلك اختار أن يقف موقفا وسطا عندما ذهب إلى الاعتقاد بأن الميتافيزيقا بطبيعتها ممكنة الوجود دائما، لكننا في الوقت نفسه لا نستطيع أن نعرف من خلالها إلا بعض الأشياء، ولعله لهذا السبب كان يبدي إعجابه بقدماء الفلاسفة عندما ينعتهم بأنهم قد كانوا أسيادنا في مجال الميتافيزيقا لأنهم ببساطة قد أدركوا أكثر من غيرهم طبيعة الميتافيزيقا وبما يمكن أن تقدمه لنا، شعارهم في ذلك «كل ما أعرفه هو أنني لا أعرف شيئا» ونقطة انطلاق ضرورية لكل فلسفة نظرية[16].

يختلف الإشباع الميتافيزيقي الذي تقدمه الفلسفة للفلاسفة عن ذلك الذي يقدمه الدين للإنسان العادي، فالدين على الرغم من أنه يعبر عن حاجة ميتافيزيقية ملحة، إلا أنه يتسم بكونه إشباعا عرضيا زائلا لا يكفي لملء الفراغ الروحي الذي يعاني منه الإنسان، والسبب في اعتقاده هو الدين نفسه باعتباره يرتكز على مبدأ وحيد هو "الإقناع"، إلا أن هذا الأخير وبسبب تطور العلوم والمعارف قد بات يعرف ضعفا متناميا حتى أن العلاقة بين تأثير الدين وتطور العلوم والمعارف قد أضحت علاقة طردية لا يمكن تجاهلها، بل إنه يمكن وبتقدير حسابي بسيط أن ندرك بأن الذين يعجز الدين عن إقناعهم في تزايد مستمر، وهذا العدد هو بالذات من يصر على الحقيقة الميتافيزيقية في صورتها الخالصة[17].

يضيف شوبنهور سببا آخر لتراجع تأثير الدين في النفوس، ذلك السبب هو التقارب الذي حصل بينه وبين الفلسفة، فقد ذلك التقارب إلى اندماجهما وبالتالي ظهور كائن هجين هو "الفلسفة الدينية" أو "الفلسفة المسيحية"، ومع هذا الكائن الجديد تحولت دراسة الفلسفة للنصوص الدينية إلى مجرد شروح يغلب عليها الطابع التبسيطي، وهدفها الحقيقي هو الدفاع عن دين البلد، وهذا الأخير قد أضحى بدوره قاعدة دينية لكل بلد بغض النظر عن المذهب المتبع فيه[18]. غير أن السبب الجوهري لعجز الدين وتراجع تأثيره في النفوس لم يكن بسبب تحالفه مع الفلسفة بقدر انحرافه الشديد عن الغاية الجوهرية التي وجد من أجلها، وكذا الانخراط في خدمة أغراض أيديولوجية مختلفة تماما هي أيديولوجية الدولة القائمة والتي لا هدف لها سوى ترسيخ

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

أوصال الأنظمة السياسية، ونتيجة لذلك تحولت أوروبا كلها إلى فدرالية دول مسيحية متعددة المذاهب الدينية، ومعها ضاعت الحقيقة الدينية في أوروبا بكاملها[19].

2-البراهمانية كميتافيزيقا دينية بديلة:

لم يكن شوبنهور رافضا للدين على وجه الإطلاق، وذلك لأنه لم يكن يوجه انتقاده للدين في حد ذاته وإنما كان يقصد الدين المسيحي بعد أن تعددت صوره وأشكاله، لاعتقاده بأن تعدد المذاهب الدينية واختلافها يعد في حد ذاته عائقا كبيرا أمام الفلسفة يمنعها من بلوغ الحقيقة الخالصة في فهم الوجود، وهذا بدوره يفسر سبب هجومه العنيف على المذهب الكاثوليكي باعتباره أكثر المذاهب الدينية تطرفا وسلبا لحرية الفكر، والأخطر من ذلك هو أنه أكثرها إصرارا على استيعاب المذاهب الفلسفية من أجل تسخيرها لخدمة وجوده وإضفاء المصداقية على مبادئه على غرار "الكاثوليكية الألمانية" التي لم تكن في الواقع سوى مذهبا دينيا مبطنا بالمعاني الهيغلية، وهذا النوع من المذاهب الدينية لا يمكنه أبدا فهم العالم على الوجه الصحيح[20].

يحدد شوبنهور سببين يجعلان من الكاثوليكية أكثر المذاهب المسيحية تطرفا وهما:

الأول: لأنها تفرض سلطتها على مؤسسات المجتمع وعلى رأسها المؤسسة السياسية.

والثاني: سعيها لأن تكون المذهب المطلق وتقديم نفسها للناس على أنها روح المسيحية أكثر من غيرها، وهذا ما يجعلها أكثر عدائية تجاه بقية المذاهب.

وانطلاقا من هذين الصفتين يدين شوبنهور فلسفة "هيغل" مرة أخرى عندما يزعم بأن مبادئ الكاثوليكية تنسجم مع فلسفته التي ترتكز على فكرة المطلق منه تبدأ وإليه تنتهي، وهو ما يعني بأن روح الاستبداد عامل مشترك بينهما، بل إنه يصر على أن المبادئ الهيغلية قد ساهمت أكثر من غيرها في ترسيخ الروح الاستبدادية للمذهب الكاثوليكي، في حين أنه يعتقد بأن الفلسفة لم توجد من أجل خدمة الكهنوت والكهنة[21].

يكافح الدين المسيحي باستمرار من أجل إثبات وجوده بعد موجة الهجران التي بدأت تظهر إلى العيان، وقد ذهب شوبنهور إلى أن السبب الجوهري في ذلك الهجران هو أنه قد أضحى مجرد وسيلة تستخدمها الأنظمة السياسية من أجل إخضاع الرعية وتنويمها تماما مثلما يستخدم "الغول" لإخافة الأطفال وجعلهم يخلدون إلى النوم[22]. لقد أصبح وجود الدين المسيحي مقتصرا على أداء دور المنوم للعقول ومن ثم الهيمنة عليها، والغاية السياسية من وراء ذلك هي ترويض الحركات المعارضة أو المتمردة من أجل تحقيق استتباب أمر الدولة واستمرارها. وفي هذا السياق لا ينسى شوبنهور أن يوجه سهام نقده نحو فلاسفة الجامعة، وذلك لاعتقاده بأن تهجين الدين لصالح السياسة لم يكن ليحدث لولا دعمهم نظير ما تغدقه الدولة عليهم من امتيازات مادية ومعنوية، وهذه الأخيرة إن لم يكن من أجل ضمان تأييدهم فمن أجل اتقاء شرهم على الأقل، ولا يجد شوبنهور أصدق مثال على كلامه من "هيغل"، فهذا الأخير قد رفع - في نظره - كيان الدولة إلى درجة المطلق فأحل بذلك المطلق السياسي محل المطلق الفلسفي. وكما وظف مفهوم

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

المطلق لصالح السياسة، فقد ذهب أيضا إلى إمكانية اكتشاف جوهر الدين بمجرد تتبع سياق صيرورته التاريخية، وعلى هذا الأساس ذهب إلى الاعتقاد بأن "الخطيئة الأصلية" تمثل البداية لصيرورة تطور الدين، ومن ثم فالخطيئة الأصلية بمثابة حالة طبيعية ينبغي تجاوزها من أجل بلوغ المرحلة التي تتحقق فيها الوحدة مع الله[23]. وبذلك يكون هيغل قد وقع في الخطأ فرفع المسيحية إلى مستوى المطلق حيث تنتهي الصيرورة، متجاهلا بذلك أكبر الأحداث الميتافيزيقية التي حكمت بموت الإله، إله الإنجيل، على غرار النقد الكانطي للميتافيزيقا[24]. لكن الحقيقة هي أن هيغل وعلى خلاف كانط قد حاول الانتقال من صورة التعارض القائم بين العلم والإيمان إلى صورة جديدة تضمن للمسيحية قيمتها المطلقة، والتي يعتقد بأنها تنبثق من فكرة "التجسد" وتلبي رغبته المتمثلة في رفع الإيمان إلى مستوى العلم عن طريق تأويل نظري للعقائد، وهكذا تتطابق عنده لحظات الجدل المتمثلة في القضية ونقيضها والتأليف بينهما مع الثالوث االمسيحي (الله الأب، الله الإبن، الله كروح مطلق)[25]. وبذلك يكون هيغل قد حافظ على وجود الإيمان والعلم جنبا إلى جنب على اعتبار أنه لا مطلق دون نسبي ولا تركيب دون تناقض.

وبالمقابل يعتقد شوبنهور بأنه لا يمكن فهم الدين بمجرد اتباع نسق صيرورته أو بمجرد اتباع حركة الجدل أو بناء على فكرة التقدم الوضعي، بل إن العكس هو الصحيح، أي أنه لا يمكن الحكم على قيمة الدين بناء على تطوره لأن الصورة الأقدم للدين قبل دخوله مرحلة التحول والتبدل، قد تكون هي الصورة الأصلية والنموذجية للدين، مشبها الدين باللغة في قوله بأن «الأديان تشبه اللغات، أكثرها قدما أكثرها اكتمالا»[26]. غير أن هذه الحقيقة لا تنطبق على الدين المسيحي كما هو عليه الآن، لأن لغة التعارض التي تحكم مكوناته المذهبية لدليل قاطع على اندثار صورته الأولى، ومما ساهم في زعزعة صورته كدين مقدس بشكل رسمي لدى الأوروبيين هو الصراع الخفي بينه وبين اليهودية التي ما فتئت تكافح بدورها من أجل فرض نفسها كدين معترف به، ولأن الصراع من أجل البقاء هو الذي يحكم علاقة الأديان ببعضها البعض، فإن فهم مدلول الدين لا يمكن أن يتم إلا من خلال لغة التعارض التي تحكم العلاقة بين اليهودية والمسيحية، وذلك بدوره لا يتم إلا إذا انحلت "الفلسفة الدينية" إلى ميتافيزيقا بديلة تتصف بالقابلية للاقتراب من الحقيقة الخالصة والبسيطة في الوقت نفسه، وهذه الحقيقة لا يمكن العثور عليها في الأديان المتشابهة كاليهودية والمسيحية لسبب بسيط وهو أنها تحمل الحقيقة على الجهة الرمزية المجازية، وهذا بدوره يؤكد على حقيقة أن تعدد انحرافات الدين قد ارتبط تاريخيا بسبب سعي الإنسانية المستمر من أجل فهم الحقيقة الدينية بصورة صوفية لا عقلانية[27].

يشترط شوبنهور في الميتافيزيقا الجديدة شرطان أساسيان، الأول أن تتجاوز وضعية الدين الراهنة، والثاني أن تتجاوز علاقته غير الطبيعية مع الفلسفة، وانسجاما مع معارضته الشديدة لفلسفة هيغل الدينية، ينبغي أن تكون الميتافيزيقا حاملة لروح دينية حقيقية تجعلها مستقلة عن كل تحليل نسقي مجرد مهما كانت قيمة التصديق المستخرجة منه والنظر إليه على أنه مجرد ألم

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

ضروري يرافق الوجود الإنساني، ذلك الألم الذي ينشأ باستمرار عن العجز الفكري المشفق لدى الأغلبية الساحقة من الأفراد باعتبارها غير قادرة على الإمساك بالحقيقة[28].

ليس الدين إذن سوى تلك الصورة المعبرة عن حاجة ميتافيزيقية راسخة في النفس البشرية، وتلك الصورة يضعها شوبنهور في مركز كل الأديان غير أن أكثرها ميتافيزيقية خالصة تلك المتعلقة بديانة الهنود[29]. وللتأكيد على فكرته يجري شوبنهور مقارنة بين اليهودية من جهة والبراهمانية البوذية من جهة أخرى.

يتصور شوبنهور الديانة اليهودية على أنها ميتافيزيقا قائمة بذاتها لكنها ميتافيزيقا مزيفة وحاملة لمبادئ خاطئة، وبالمقابل ينظر إلى البوذية على أنها ميتافيزيقا حقيقية، دليله على ذلك هو أن الدين يستمد قيمته وقدسيته من روحه أكثر مما يستمدها من مناسكه، وهذا ما لا ينطبق على الديانة اليهودية على عكس الدين الهندي الذي تشيع روحه في كل مكان، تلك الروح التي يتردد صداها في الصورة الرمزية للنشيد الجميل وللمديح الصوفي الذي يحتفي بالوجود كله في صورة الشمس والقمر والنجوم، والرياح والماء والأرض، على أن كلها يشهد بالروح الهندي الفطري الذي يحركها[30].

بين نقد الدين بشكل عام ومقارنة الديانة اليهودية بالديانة الهندية، يتجلى بوضوح موقف شوبنهور الذي يتأرجح بين الرفض والقبول، بين الرفض المطلق للدين باعتباره مجرد عامل إضافي في حياة الشعوب، وبين القبول المشروط للدين والمرتبط تاريخيا بظروف نشأته، ولذلك يستخلص نتيجته والتي مفادها أن «الدين ميتافيزيقا شعبية لا شك في ذلك، لكن ينبغي دراسته والعمل على تبيان ما هو صحيح فيه مما هو خاطئ»[31]. وهكذا يبدو وكأنه يغير موقفه من الدين تبعا لحاجته الفكرية الملحة، فبعد أن كان الدين مجرد بديل خرافي للحقيقة، صار مجرد ألم حتمي يرافق وجود الإنسان، وأخيرا تغيرت نظرته إليه فصار ميتافيزيقا. وللتأكيد على قيمة الميتافيزيقا بالنسبة للفرد والمجتمع على حد سواء، يذهب إلى القول بأن الشعوب تتمايز بالدين أكثر مما تتمايز بواسطة اللغة، وبموجب ذلك ينبغي على الأنظمة السياسية حتى تكون صلبة بما فيه الكفاية أن تضمن اعتراف الناس بها كما لو أنها ميتافيزيقا، بمعنى أن طبيعة أي نظام سياسي لا يمكن سوى أن تكون ميتافيزيقا شعبية[32]. وبالمقابل، إذا كانت الديانة البوذية أقل اعتناء بأمور الدولة كما يعتقد شوبنهور، فإنها بذلك تصلح أن تكون ميتافيزيقا نخبوية بل إنه يذهب إلى جعل البراهمانية المرادف الأول للميتافيزيقا وليس العكس[33].

إن ما يجعل البراهمانية بمثابة ميتافيزيقا نخبوية هو أنها تحقق مفهوم الوسط الذي تستمده من روحها، وهذا بالضبط ما يعتقد شوبنهور بأنه يضفي صفة العالمية على أي دين باعتباره ميتافيزيقا صحيحة تمثل الاعتقاد البديهي الذي لا حاجة فيه إلى أي تفسير سواء بالنسبة للعاقل أو بالنسبة للمجنون، وفضلا عن خاصية "البداهة" يضيف شوبنهور خاصية ثانية تتمثل في "الواقعية"، أي أنه يصنف الدين أو الميتافيزيقا تبعا لارتباطهما أو انفصالهما عن الواقع

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

والحياة، وهذا بالضبط ما دفعه إلى تفضيل البراهمانية كميتافيزيقا روحية على اليهودية باعتبارها ميتافيزيقا أقل تميزا من غيرها، والسبب في هذا التفضيل هو أن اليهودية تقوم في نظره على النظرة الأكثر واقعية والأكثر تفاؤلا وهو ما يجعلها أقرب إلى التحالف مع المسيحية من أجل تأليف الشروط التي تجعل الحياة تبدو كحضور ممتع، والحقيقة أنهما بذلك يساهمان في استمرار الوهم والخداع الألوهي، في حين تعكس البراهمانية والبوذية النظرة المثالية المتشائمة التي لا تمنح العالم والحياة سوى حضورا رمزيا معبرا عن الحلم[34].

إن تفضيل شوبنهور للميتافيزيقا ذات البعد التشاؤمي لا يعني بالضرورة أنه يستبعد التاريخ في تحليله لمسألة الدين، وإنما ينظر إليه من زاوية الأحداث المؤثرة في حياة الإنسان والتي لا يمكن النظر إليها على أنها مجرد حوادث عارضة، ذلك لأن تكرار حوادث بعينها يعكس أمرا لا يمكن إغفاله ببساطة، فالتاريخ الذي يعتبر رافدا أساسيا للجدل الهيغلي، يعتبره شوبنهور مجرد حلم طويل لا استفاقة منه، متعب ومشوش للإنسانية بسبب طبيعته التكرارية التي تعيد على الإنسانية نفس المؤامرات والاغتصابات لإنسانية هي ذاتها لا تتكرر ولا تتغير في طبيعتها المتطابقة في كل زمان ومكان، وهذه الرتابة تنتفي معها الحاجة إلى العبرة، وبالتالي لا يمكن أن نتعلم منه أي شيء لأنه ببساطة يفتقر إلى المفهوم الجدلي على خلاف ما يعتقد هيغل، إنه إذن مجرد حلم مخيف مثقل بالمآسي[35].

لا يتناول شوبنهور التاريخ من زاويته المظلمة إلا من أجل غاية واحدة وهي تحميل الدين تلك المآسي التي كان التاريخ شاهدا عليها، لاعتقاده بأن الارتباط الطردي بين ظهور الدين ووقوع المآسي في حياة الإنسانية، يتجلى بوضوح من خلال ما يحتفظ به التاريخ في صفحاته التي هي ذاتها الصفحات المأساوية للحروب الدينية المتكررة[36]. ومن أجل ذلك يدعو إلى ضرورة التركيز على الحوادث المأساوية عند مراجعة تاريخ الإنسانية لأنها الحوادث الأبرز بل والمهيمنة على حركة التاريخ كلها، ولا أدل على ذلك من فكرة "الاعتبار" التي نحاول دائما أن نقرنها بقراءة التاريخ، لأن ما يدفعنا إلى الاعتبار حقيقة ليس تلك الصفحات البيضاء التي تعبر عن سعادة عابرة بل تلك الصفحات السوداء التي توثق لمعاناة الإنسانية وبؤسها، فالتركيز على الصفحات السوداء من التاريخ كفيل بأن يمنحنا القراءة الميتافيزيقية الصحيحة للعالم، لأنه كما يقول شوبنهور: «يجدر بنا عند مراجعة التاريخ أن نعرف الأشياء المتعلقة بالموت وتأمل الألم والمعاناة، لأن ذلك وحده كفيل بأن يعطي للتأمل الفلسفي أكبر دافع قوي من أجل التفسير الميتافيزيقي للعالم»[37].

من الطبيعي إذن أن تنسجم نظرته لطبيعة الميتافيزيقا الدينية كما تمثلها الديانة الهندية في صورتي البراهمانية والبوذية مع نظرته التشاؤمية تجاه الحياة والوجود، فلقد كان شوبنهور بحق هو المعبر عن روح العصر في فلسفته التشاؤمية، وفي ذلك تحديدا تكمن أصالته، وما يثبت ذلك هو أنه قد وضع منذ البداية مصير الإنسان المحكوم بالشقاء والأحزان منطلقا لكل تأملاته

إنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

الفلسفية، وبذلك يكون قد جمع بين الإنسان المتشائم من الحياة من جهة، والفيلسوف المتأمل في أحزان البشرية من جهة ثانية، لقد استطاع أن يجمع بين الإحساس الذاتي باعتباره إنسانا، وبين التأمل الوصفي باعتباره فيلسوفا[38]، وبذلك تنتفي عنه نقيصة أن تشاؤمه لا يعدو أن يكون مجرد موقف مبتذل ناجم عن حالة من اليأس ومن التفكير اللاجدي في الوجود، يكتفي فيه المتشائم بجمع النقائص التجريبية للوجود والحياة، فينقلب من حالة الرضا إلى حالة من عدم الرضا تولد في نفسه مشهد الحياة الذي يخلو من كل صفاء[39] .

اقترن الطابع التشاؤمي بفلسفة شوبنهور أكثر من أي شيء آخر، وذلك على اعتبار أنه يمثل السمة البارزة والثابتة التي تتخلل فكره الفلسفي ككل، وهو ما يؤكد على أن التشاؤم لم يكن بالنسبة إليه مجرد موقف فلسفي منفصل، وإنما هو انبثاق طبيعي عن مبدأه الفلسفي الأول أي الإرادة. تمثل الإرادة المبدأ الميتافيزيقي الأول الذي يؤسس عليه كل لبنات مذهبه الفلسفي، وبالتالي فإن كل ما ينبثق عنه من استنتاجات يأخذ طابع ذلك المبدأ، وهذا بدوره ما يؤكد على أن تناوله لمسألة التشاؤم كان تناولا ميتافيزيقيا خالصا تبعا لطبيعة الإرادة ذاتها.

تمثل الإرادة الجوهر الوحيد في الكون والمبدأ الوحيد للحياة، غير أنها عمياء لا واعية بل وهي أصل الشرور كلها، وفي ذلك تأكيد على أن «المعاناة هي جوهر الحياة والتي لا أحد يفلت منها»[40]. وبناء على جوهرية المعاناة فإنها ذات طابع صوري قبلي يتكفل الواقع بعد ذلك بعملية تأكيده وتحقيقه، والمعاناة كمبدأ صوري قبلي يعبر عن مبدأ "الشيء في ذاته"، في حين أن صورها في الواقع ليست إلا تعبيرا عن "الظاهر" منها، أي أنها أصلية في حقيقتها، تتحقق أولا على مستوى الفكر، في حين أن اختبارها الفعلي يمثل التجلي الموضوعي لذلك الأصل[41]. فبمجرد أن يدرك الإنسان حقيقة العالم كإرادة "le monde comme volonté" وأن الإرادة هي «الماهية الجوهرية للعالم»[42]، تبدأ نظرته المتشائمة للحياة والوجود، ومن خلالها يدرك الطابع العبثي الذي تتصف به تلك الإرادة ومدى عبثية الحياة والوجود معا، وينتج عن هذا التصور أن تشاؤمية شوبنهور تقوم على معنيين يؤكد أحدهما الآخر:

- فمن جهة : الموقف التشاؤمي الذي يمثل الواجهة أي الظاهرة.

- ومن جهة أخرى: حقيقة التشاؤم والتي من خلالها يسعى إلى التأكيد على الطابع اللاعقلاني للوجود، ومن ثم البحث عن مبررات صلبة تؤيده. وهو بهذين المعنيين جعل من نفسه المشيد الأول للإحساس باللامعقول والذي يمثل بدوره الأساس الأول للتشاؤم[43].

3-خاتمة:

ما يخلص إليه البحث هو أن شوبنهور ينفي عن الديانتين المسيحية واليهودية صلاحيتهما لأن يكونا بمثابة ميتافيزيقا يجد فيهما الإنسان ما يشبع حاجته الروحية الميتافيزيقية، والسبب في ذلك هو أنهما يخطئان في النظر إلى العالم كما لو أنه ذو معنى فيزيائي لا روحي، وبذلك لم يدركا بأن معاناة الإنسان في الوجود هي التعبير الجوهري عن الجانب الروحي الخفي للعالم،

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

وهذا بالضبط ما أدركته الديانة الهندية فاستحقت بذلك أن تكون هي مثال الميتافيزيقا الدينية التي تجمع بين النظرة العميقة والشاملة لحقيقة الوجود.

كما أن الحاجة الميتافزيقية لا يمكن إشباعها إلا عبر الحقيقة الفلسفية أو الحقيقة الدينية، وهاتين الحقيقتين هما حصرا من اختصاص الصفوة من الفلاسفة أو يمكن اقتباسها من ميتافيزيقا حقيقية على غرار البراهمانية أو البوذية باعتبارهما يمثلان عصارة تأمل حقيقي في الوجود أدرك من خلاله حكماء الهنود أكثر من غيرهم مدى الوهم الذي يلف وجودنا ويخدعنا، لأن ما يبدو لنا في هذا العالم ليس سوى حجاب المايا الذي يظهر لنا الأشياء على خلاف ما هي عليه الأشياء في ذاتها. وهكذا يكون شوبنهور قد وجد سندا قويا لنظرته التشاؤمية الشاملة تجاه الحياة والوجود، وبناء على ذلك لم يكن غريبا البتة انخراطه في العقيدة البوذية البراهمانية باعتبارهما التجسيد الحقيقي لمعنى الحياة كما تبدو له.

الهوامش

[1] Schopenhauer Arthur, le monde comme volonté et comme représentation, tr : A. Burdeau, 13eme Edition, presses universitaires de France, Paris1992.p853.

[2] Aristotle, the metaphysics, translated with an introduction by Hugh Lawson-Tancred, Penguin Books, London1998, p9.

[3] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p851.

[4] Ibid. p851.

[5] Schopenhauer Arthur, sur la religion, présentation et traduction : Etienne Osier, GF Flammarion, Paris2007, p79.

[6] Arthur Schopenhauer, Le monde comme volonté et comme représentation, p856.

[7] Jean Lefranc, Comprendre Schopenhauer, Armand Colin, Paris2005, p113.

[8] Théodore Ribot, la philosophie de Schopenhauer, librairie Germer Ballière, Paris1874, p26-27.

[9] محمد عثمان الخشت، الدين والميتافيزيقا في فلسفة هيوم، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة 1997، ص17.

[10] Arthur Schopenhauer, Sur la religion, p79.

[11] Barbara Sandro, une philosophie du conflit, presses universitaire de France, Paris 2004.p37.

[12] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p349.

[13] Ibid. p1380.

[14] Théodore Ribot, la philosophie de Schopenhauer, p32-33.

[15] عثمان أمين، رواد المثالية في الفلسفة الغربية، دار المعارف، مصر 1967، ص89.

[16] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p883.

[17] Arthur Schopenhauer, contre la philosophie universitaire, p58.

[18] Arthur Schopenhauer, sur la religion, p79.

[19] Barbara Sandro, une philosophie du conflit, p31.

المنارة للاستشارات

المجلد: 16 العدد: 1 السنة: 2021 صفحات المقال: 17 ISSN:1111-5203 EISSN: 2006-6596

[20] Arthur Schopenhauer, contre la philosophie universitaire, p54.
[21] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p1380.
[22] Jean Lefranc, comprendre Schopenhauer, p29.
[23] رينيه سرو، هيغل والهيغلية، ترجمة: د. أدونيس العكرة، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت1993، ط1، ص48.
[24] Jean Lefranc, comprendre Schopenhauer, p37.
[25] رينيه سرو، هيغل والهيغلية، ص47.
[26] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p861.
[27] Jean Lefranc, Comprendre Schopenhauer, 31.
[28] Ibid. p30.
[29] Jean Lefranc, Comprendre Schopenhauer, p34.
[30] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p1383.
[31] Arthur Schopenhauer, contre la philosophie universitaire, p43.
[32] Arthur Schopenhauer, sur la religion, p79.
[33] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p1254-1256.
[34] Jean Lefranc, comprendre Schopenhauer, p33.
[35] Jean Lefranc, comprendre Schopenhauer, p41.
[36] Arthur Schopenhauer, Contre la philosophie universitaire, p64.
[37] Ibid. p64.
[38] Théodore Ribot, la philosophie de Schopenhauer, p138.
[39] Alexis Philonenko, Brève méditation sur la philosophie de la tragédie de Schopenhauer (in Schopenhauer et la force du pessimisme), Edition du Rocher, France, 1988, p72.
[40] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p398.
[41] Peron Gabriel, Schopenhauer, la philosophie de la volonté, Paris2000, p194.
[42] Arthur Schopenhauer, le monde comme volonté et comme représentation, p153.
[43] Clémon Rosset, Schopenhauer, philosophie de l'absurde, presse Universitaire de France, 2eme Édition, Paris1994, p64.

ww